

مجلة

جامعة أم القرى

للبحوث العلمية المحكمة

العدد الثاني عشر

السنة التاسعة ، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م)

رقم الإيداع ٣٣٠٣وتاريخ١٢/١١/١٤١٥هـ-الرقم الدولي المعياري للدوريات ردمد:٤٢١٦-١٣١٩ ISSN


٣٠٠٠٠١٢-٤

القاف المسماة فصيحة والأخرى المسماة عامية في عربية اليوم الفصحى

عبد الفتاح محجوب محمد إبراهيم
محاضر بمعهد تعليم اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

ملخص البحث

يبحث موضوع الدراسة في كنه القاف المستخدمة اليوم في أروقة الجامعات والمدارس وأجهزة الإعلام المختلفة . هل هي القاف التي وصفها القدماء من نحويين وقراء ؟!

وإن لم تكن كذلك فأين تلك الأخرى المجهورة غير المطبقة التي وصفها الأقدمون! هل اندثرت ؟

ثم يثير البحث قضية مهمة تتعلق بالعامية والفصحى ، وهي قضية مهمة على مستوى توحيد الأمة العربية . فبينما تقرب الفصحى بين الشعوب العربية ، نجد العامية تنحو منحى آخر من حيث إنها تباعد بين الأمة العربية وتوحدها .

بالإضافة إلى كل ذلك فإن البحث أيضا يطرح قضية تعليمية تتعلق بصوت من أصوات العربية والصعوبة التي يقابلها المتعلمون في نطق هذا الصوت ، أو ذاك .

هذه المشقة ليست عند المتعلمين فحسب ، بل عند المثقفين بصفة عامة .

موضوع البحث :

القاف المسماة فصيحة والأخرى المسماة عامية في عربية اليوم الفصحى

تعريف :

المراد بالقاف الفصحى اليوم ، تلك التي تستخدمها الإذاعات العربية ، المسموعة والمرئية ، في نشرات الأخبار ، وينطق بها المعلمون في أروقة الجامعات والمدارس وتقدم بها المحاضرات العامة .

والمراد بالقاف المسماة عامية تلك التي ينطق بها العرب كافة اليوم في جزيرة العرب .. في المملكة العربية السعودية على اختلاف قبائلها ، ودول الخليج العربي الأخرى ، وكذلك في الشام والعراق والسودان ، وصعيد مصر ، وجميع دول شمال أفريقيا العربية . وأكاد أقول كل الأمة العربية تتحدث بها ، ومع ذلك تسميها العامية وتحرم استخدامها رسمياً وتعليمياً .

فالمطلوب من أبنائنا أن يتحدثوا بها في البيت ، وفي المتجر والحقل .. وفي أي مكان إلا فصول الدراسة !! فمن أين جاءت تلك القاف ؟! وكيف انتشرت بين الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ؟! والسؤال نفسه يمكن أن ينقلب في آخر هذا البحث ليتساءل عن كنه تلك المسماة فصيحة من أين جاءت ؟ ولماذا اقتصرت على الاستخدام الرسمي ؟!

القاف كما عرفها علماء اللغة الأقدمون والمحدثون

القاف المسماة فصيحة :

يتم إخراج هذا الصوت بارتفاع مؤخر اللسان ، نحو اللهاة والتصاقه بها ، فيحجز الهواء الخارج من الرئتين حجزا كاملا ، ثم تفك هذه العقبة التي اعترضت طريق الهواء محدثة صوت القاف الشديد .

لا يحرك الهواء الخارج من الرئة الحبلين الصوتيين عند المرور بهما ، ولذلك يوصف القاف في عربية اليوم الفصحى بأنه صوت مهموس ، شأنه شأن كل صوت لا يتحرك (يتذبذب) فيه الحبلان الصوتيان .

من هذا الوصف يتبين لنا أن القاف في عربية اليوم الفصحى هو صوت مهموس، لهواء (المخرج) ، شديد ، ولا خلاف بين الباحثين المحدثين في ذلك (انظر : إبراهيم أنيس –الأصوات اللغوية ، ص ٨٤ ، كما ل بشر : علم اللغة العامة (الأصوات) ، (ص–١١٠) ، د/ تمام حسان (مناهج البحث في اللغة ، ص ٩٦ (، د/ أحمد مختار عمر (جراسة الصوت اللغوي ، ص ٢٧٧) ، د/ يوسف الخليفة أبو بكر ، د/ تغريد عنبر (١) .

وهناك صفة أخرى أضيفت إلى صفات هذا الصامت (الحرف) في نطقه الجديد المتعارف عليه في فصحى اليوم ، وهي صفة الإطباق ، والإطباق عرفه سيبويه في معرض حديثه عن أصوات الإطباق : (.. ومنها (أي من الحروف) المطبقة والمنفتحة . فأما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء) ولم يذكر القاف بينها ، ثم يشرح معنى الإطباق قائلا : (والمنفتحة كل ماسوى ذلك لأنك لا تطبق لشئ منهن لسانك ترفعه إلى الحنك الأعلى) (الكتاب –

ص ٤ ٣٦) . والقاف الفصيحة اليوم يرتفع فيها مؤخر اللسان ويلتصق (مؤخر الحنك اللين) ولهذا صنفها بروكلمان وسيجال وبودشتاين ضمن أصوات الإطباق ، وأيدهم الدكتور حسن ظاظا في ذلك ، والجميع على حق فيما ذهبوا إليه فهي كذلك لأنها كما وصفنا ٠ لكن الدكتور ظاظا يتعجب من سيبويه في عدم تضمينها أصوات الإطباق قائلا :(٠٠ ويذكر (أي سيبويه) في الحروف المطبقة الصاد والضاد والطاء والظاء والعجب أنه لا يذكر منها القاف ، وهي في لغة العرب مطبقة كما هي في بقية اللغات السامية ذكر ذلك بروكلمان، وسيجال ، وبودشتاين) (د/حسن ظاظا - كلام العرب ، ص ٢٧) .

ولا عجب في ذلك لأن سيبويه كان يصف قافا غير التي عناها الدكتور ظاظا والاخرون كما سنرى بعد قليل . فالقاف عند سيبويه لم يكن مطبقا بالمعنى الفونيمي لظاهرة الإطباق عنده كما هو حادث في فصحى اليوم . يقول سيبويه في حديثه عن قلب السين صادا في بعض اللغات : (وقالوا :صاطع في ساطع لأنها من التصعيد (يعني الطاء) ، وهي أولى بذا من القاف لقرب المخرجين والإطباق) (الكتاب ج٤، ص ٤٨٠) . ومراد قوله : إنه إذا كانت السين في مثل سقت ، قلبتها القاف لما جاءت بعدها صادا صقت ، لان القاف من حروف الاستعلاء فإن الطاء أولى من القاف في قلب السين صادا وذلك لسببين:

١) في التصعيد مثل القاف أي الاستعلاء ٠

٢) بالإضافة إلى قرب مخرجها(أي الطاء) من الصاد ، ومشاركتها لها في صفة الإطباق .

إذن فسيبويه بهذا القول يقطع أي خيط يجعل صوت القاف ضمن الأصوات المطبقة ، وهو يعلم تماما حقيقة الإطباق ، ويعلم أن هذه الصفة صفة فونيمية ، كما يطلق عليها في علم اللغة الحديث أي صفة تمييزية . وعبارته المشهورة (ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا ، والصاد سينا ، والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الكلام لانه ليس شئ من موضعها غيرها تدل على ذلك ، فكل صوت مطبق ومقابله يشتركان في كل صفة ومخرج إلا الإطباق .

بهذا المفهوم للإطباق عند سيبويه لم يكن القاف من الأصوات المطبقة . أما القاف في فصحى اليوم فقد تمكنت من هذه الصفة بحيث أصبح انعدامها فيه يقلبه كافا .

نصل من هذا الحديث عن الإطباق ، إلى أن القاف التي وصفها علماء العربية القدامى لم تكن مطبقة بينما (القاف) في فصحى اليوم من الأصوات المطبقة ! والحقيقة هناك خلط عند بعض الباحثين المحدثين بين صفتي (التفخيم ، والإطباق)، فقد درج بعضهم على الخلط بين المصطلحين بالرغم من أن ذلك شئ أساسي ، لأن صفة الإطباق حين تلحق بالصوت تجعله صوتا آخر غير المجرد منها ، فكما أوضح سيبويه فإنه من غير الإطباق ينطق الصاد سينا والظاء ذالا .. الخ إذن فهو مميز (فونيمي) مغير للمعنى ، أما التفخيم فإنه ليس مميزا (فونيميا) ، فالراء مثلا لو أنها نطقت مفخمة أو مرققة فإن المعنى لا يتبدل .

أوضح الزمخشري (المفصل ٣٩٥) الفرق بين المصطلحين (التفخيم والإطباق) بجلاء حين قال : (والمطبقة الصاد والضاد والطاء والظاء ، والمنفتحة ماعداها ، والإطباق أن تطبق على مخرج الحرف من اللسان وما حاذاه

من الحنك ، والانفتاح بخلافه ، والمستعلية : الاربعة المطبقة ، والخاء والغين والقاف ، والمنخفضة ماعداها ، والاستعلاء ارتفاع اللسان إلى الحنك ، أطبقت أو لم تطبق ، والانخفاض بخلافه) .

واضح مما قاله الزمخشري أن القاف ليس من أصوات الإطباق ، بل هو من أصوات الاستعلاء ، والاستعلاء كما بين ارتفاع اللسان إلى الحنك أطبقت أو لم تطبق .

ولما كان القاف في فصحى اليوم ينطبق فيه مؤخر اللسان على ماحاذاه من الحنك اللين (الطليطلة Uvula) فهو بهذه الكيفية تراجع مخرجه من بداية اللهاة إلى آخرها وأصبح صوتا من أصوات الاطباق ، وهو لم يكن كذلك في العربية التي وصفها لنا علماؤها !

وهذا ما اثار عجب د/ ظاظا من سيبويه ، وأدى إلى اختلاف د/كمال مع ابن جنى (علم اللغة العام - الأصوات - ص ٩٤) في ترتيبه مخرج القاف بعد صوتي الغين والخاء (من الجوف إلى الفم) ، وجعل أستاذنا د/ تمام حسان يُخطّئ القراء والنحويين في قولهم بجهره (المناهج ص ٩٦) ، ويقول : (ولقد خلط النحاة العرب خلطا كبيرا في تحديد هذه المخارج ..) (نفسه ص ٨٥).

من هذا الاستطراد يتضح لنا أن القاف المسماة فصيحة-اليوم-هي صوت :

١- مهموس .

٢- لهوي (آخر اللهاة من الجوف إلى الفم) [1] .

٣- شديد .

[1] - ينطبق اللسان على الزائدة ، التي في اللهاة الخلفية للطبق .

٤- مطبق ٠

فما مدى تطابق هذا الوصف مع الوصف الذي أورده علماء العربية القدامى (نحويون وقراء) مع القاف عندهم ؟

١- الهمس : القافان يختلفان ، ففي فصحى اليوم مهموس ، وهو عند القدامى مجهور ، وهي ضمن أصوات (قطب جد) المجهورة المقلقلة عند القراء ٠

٢- المخرج : قاف اليوم كما بينا (لهوي) فهل هو كذلك عند القدماء ؟

قال الخليل : (٠٠ والقاف والكاف لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة) (العين ، ص ٥٨) ٠

يقول سيبويه في حديثه عن مخرج القاف : (ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف ((الكتاب ، ص ٤٣٣-٤٣٤) . ويتبين لنا مخرج القاف أكثر من قوله عن مخرج الكاف : (ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ، ومما يليه من الحنك الأعلى ، مخرج الكاف) (نفسه ج٤ ، ص ٤٣٣) ٠

ولما كنا نعلم مخرج الكاف اليوم ،وهو مؤخر الحنك الصلب ، وهو المخرج ذاته الذي وصفته كتب التراث له ، تبين لنا أن مخرج الكاف في فصحى اليوم هو مخرجه في اللغة العربية الفصحى القديمة ، وعرفنا بذلك تحديدا مخرج القاف القديمة ، أي أسفل مخرج الكاف قليلا (أول اللهاة) وما يقابله من مؤخر اللسان ، في الحين الذي نجد فيه مخرج القاف المسماة فصيحة - اليوم - هو إطباق مؤخر اللسان مع مؤخر الحنك اللين (آخر اللهاة) . يقول العلامة الطوفي الحنبلي (مخطوطة ٦٨٢ ، مكتبة البحث العلمي ، جامعة أم القرى) في

حديثه عن مخارج الحروف : (وهي ستة عشر مخرجا ، الأول أقصى الحلق ، وهو مخرج الهمزة والألف والهاء .

الثاني : وسط الحلق وهو مخرج العين والحاء .

الثالث : أدناها إلى الفم وهو مخرج الغين والخاء المعجمتين .

الرابع : اللسان فما فوقه من الحنك وهو مخرج القاف .

الخامس : أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ، ومما يليه من الحنك مخرج الكاف ..)

إذا تتبعنا ترتيب الحروف من الجوف إلى الشفتين – كما فعل الطوفي وعلماؤنا القدامى – نجد مخرج القاف يأتي بعد الغين والخاء ، في حين أنه في فصحى اليوم يأتي قبلهما .

فترتيب الحنبلي مبني على ترتيب سيبويه ، ومن قبله الخليل بن أحمد الفراهيدي لمخارج الحروف ، يقول الخليل (العين ، ص ٥٨) : (.. ثم القاف والكاف لهويتان ، والكاف أرفع) .

ولا خلاف بين علماء النحو والقراءات في ذلك ، ولنأخذ مزيدا من أقوالهم في القاف لنطمئن على حقيقة مخرجه وصفاته في العصور المختلفة للعلماء .

يقول مكي (الرعاية – مكي بن أبي طالب القيسي ، ص ١٣٩) : (الحروف اللهوية) : وهما حرفان القاف والكاف ، سماهما الخليل بذلك لأنه نسبهما إلى الموضع الذي يخرجان منه وهو اللهاة ـ، واللهاة ما بين الفم والحلق). تعريف اللهاة ، في قول مكي ، مهم للغاية في تحديد مخرج القاف لأن

كتب المحدثين عندما تصف القاف بأنه صوت لهوي فإنها تريد الطليطلة (Uvula) التي في آخر اللهاة ، أو بعبارة الدكتور / تمام حسان (مناهج البحث ، ص ٩٦) ••• وهي الزائدة التي في النهاية الخلفية للطبق) ، فالفرق شاسع بين مخرجي القافين ، فما عند القدامى في أول اللهاة (من الفم إلى الحلق) وما عند المحدثين في آخرها ، (للمزيد انظر ص ١٣) •

ثم يعرف مكي مخرجه أكثر قائلا (نفسه ، س ١٧١) : (القاف التي تخرج من المخرج الأول من مخارج الفم مما يلي الحلق ، من أقصى اللسان ، وما فوقه من الحنك •

والقاف حرف متمكن قوي لأنه من الحروف المجهورة الشديدة المستعلية ومن حروف القلقلة •• وهي قريبة من مخرج الكاف)•

ثم يضيف : (وإذا وقفت الكاف بعدها أو قبلها وجب بيانها لئلا يشوبها شئ من لفظ الكاف لقربها منها (١٢ص ١٧١) . ولشدة قرب مخرج القاف من الكاف يذهب مكي إلى القول (نفسه ص ١٧٣) : (الكاف تخرج من المخرج الثاني من مخارج الفم بعد القاف مما يلي الفم ، وهي مهموسة شديدة ، ولولا الجهر والاستعلاء اللذان في القاف لكانت كافا ، كذلك لولا الهمس والتسفل اللذان في الكاف لكانت قافا ، لقرب مخرجيهما ، ولذلك لم يأتلف القاف والكاف في كلمة إلا بحاجز بينهما ، ولا تجد قافاً تلاصق كافاً من أصل كلمة البتة) .

بهذا القول يكون مكي قد حدد مخرجا القاف التي يصفها هو وغيره من النحاة والقراء – تحديدا دقيقا ، وهذا التحديد لا يصعب علينا اليوم معرفته

لأننا نعرف جيدا مخرج الكاف . أما القاف التي يصفها العلماء اليوم ، فكما رأينا تخرج من الطليطلة (آخر اللهاة) بعيدا عن مخرج الكاف ، ومخرجهما بالتالي بعيد عن مخرج الكاف التي يتحدث عنها مكي وغيره من العلماء القدامى .

ثم يقول مكي معرفا الحروف الصم (وهي الحروف التي ليست من الحلق ، وهي ما عدا السبعة الأحرف الخارجة من الحلق ، وهي الهمزة والهاء ، والألف والعين والحاء والغين والخاء) فما عدا هذه الأحرف يقال لها صم ، وإنما سميت صما لتمكنها في خروجها من الفم ، واستحكامها فيه ، يقال للمحكم : المصمم حكاه الخليل وغيره (نفسه ص ١٢٧) .

فمن عبارة مكي يتضح أن القاف عنده – كما عند غيره من القدامى – يأتي بعد الغين والخاء (من الجوف إلى الفم) ، وهو ليس من حروف الحلق. فهل القاف المستخدم في فصحى اليوم يأتي من هذا الموقع (المخرج) ، أبدا ، إنه سابق على هذين الصوتين ، وانه بمخرجه الجديد أصبح من حروف الحلق السبعة التي أشار إليها مكي – وغيره– ، بل إنه أمكن في الحلق من الغين والخاء!

ولو تتبعنا المزيد من علماء القراءات لوجدناهم جميعا يذهبون إلى جهرية القاف ، ويعتبرون مخرجه ألصق المخارج بالكاف ، ولهذا فهو يدغم فيه . يقول ابن الجزري (تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة ، ص ٤٥) : لاأعلم أنه لم يدغم أيضا من المتقاربين في كلمة إلا القاف في الكاف التي يكون في ضمير الجمع المذكرين إذا تحرك ما قبل القاف لا غير ، وذلك نحو قوله تعالى :

(خلقكم ، ورزقكم ، ويخلقكم ، ويرزقكم ، وأوثقكم) وشبهه ، وأظهر ما عداه مما قبل القاف فيه ساكن ، ومما ليس بعد الكاف فيه ميم ، نحو قوله تعالى (ميثاقكم ، وبورقكم ، وخلقكم ، ونرزقكم) وشبهه .

((واختلف أهل الأداء في قوله تعالى : ﴿ إن طلقكن ﴾ في سورة التحريم فكان ابن مجاهد يأخذ فيه بالإظهار ، وعلى ذلك عامة أصحابه ، والزم اليزيدي أبا عمرو ادغامه ، فدل ذلك على أنه كان يرويه عنه بالإظهار ، وقرأته أنا بالإدغام وهو القياس لثقل الجمع والتأنيث ٠ص ٤٥، ص٤٦)

وفي حديث ابن الجزري عن ادغام المتقاربين من كلمتين يقول فيما يتعلق بالقاف والكاف (التحبير ص ٤٦) : (وأما القاف فكان يدغمها (١) في الكاف اذا تحرك ما قبلها نحو قوله تعالى (خالق كل شئ) و (خلق كل شئ)، و (خلق كل دابة) وشبهه . فإن سكن ما قبل القاف لم يدغمها نحو : (وفوق كل ذي علم عليم) وشبهه .

وأما الكاف فادغمها أيضا في القاف إذا تحرك ما قبلها نحو قوله تعالى: ﴿ونقدس لك قال﴾ ، ﴿ وكان ربك قديرا ﴾ ﴿ ولك قصورا ﴾ وشبهه ، فإن سكن ما قبل الكاف لم يدغمها نحو ﴿ اليك قال ﴾ ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ وشبهه .

إن القاف في فصحى اليوم بمخرجه الجديد الذي يبعد عن مخرج الكاف يجعل هذا الإدغام عسيرا ، إن لم يكن متعذرا ً ومعلوم أن اللغات تلتزم بالقاعدة المعروفة وهي (البحث عن الجهد الأقل) في كلامها ، واللغة العربية – التي أوتيت جوامع الكلم – تأتي في مقدمة اللغات في ذلك ٠

تحت عنوان : (حروف يخاف على القارئ اللحن فيها بالإدغام) يقول ابن الباذش (الإقناع في القراءات السبع ، ص ١٧٦ ٩ : (ومن ذلك القاف عند الكاف ، والكاف عند القاف) : البيان والإدغام جائزان عند البصريين فيهما . فالإدغام لتفاديهما في المخرج ، والإظهار لاختلاف الصفتين ، لأن القاف مجهورة ، والكاف مهموسة ، فالكاف عند القاف نحو : انهك قطنا ، ولا أعلمه جاء في القرآن (٢) ، والقاف عند الكاف موضع واحد هو قوله عز وجل في المرسلات : ﴿ ألم نخلقكم من ماء ... ﴾ .

فإذا كان المخرج قد تباعد في فصحى اليوم بين القاف والكاف – كما رأينا – القاف في آخر اللهاة (الطليطلة) ، والكاف في آخر الحنك الصلب – فهل يسهل ، بل هل يمكن إدغام هذين الصوتين في هذا الوضع الجديد ؟!

فإذا صعب على اللسان أداء الإدغام في هذا الوضع الجديد للصوتين إلا بعد ترويض كبير ومشقة ، أفلا يقف ذلك شاهدا آخر على أن القدامى كانوا يعنون قافا غير هذه المهموسة في حديثهم عن الإدغام ؟

وإن أردت مثالا على ذلك فجرب بنفسك إدغام الكاف في القاف في مثالهم الذي أورده سيبويه : (انهك قطنا) .

مرة بهمس القاف كما في فصحى اليوم) ، ومرة بجهرها كما وصفتها كتب القدامى .

لقد أدى التقارب الشديد في المخرج بين القاف والكاف قديما أن حدث إبدال بينهما ، في بعض اللهجات العربية ، بل حتى في بعض القراءات كقراءة (قافورا) بالقاف بدل الكاف . (عبد الصبور شاهين ، القراءات

القرانية في ضوء علم اللغة الحديث ، ص ٤٠٦) ويضيف د : عبد الصبور : (قال البحر : وهما كثيرا ما يتعاقبان (البحر ٣٩٥/٨) ٠ وقال اللسان : (تميم وأسد يقولون : (قشطت) ، وقيس تقول : (كشطت) ، غير أن اللسان لا يعتبر هذا إبدالا وإنما هي لغتان ، لأقوام مختلفين) .

نختم هذه الشواهد الدالة على مخرج القاف ، وجهره من أقوال القدامى - التي لا خلاف بينهم حولها - بهذين البيتين من كتاب (قصيدتان في تجويد القرآن لابن مزاحم الخاقاني المتوفى سنة ٣٢٥هـ ولعلم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣هـ (تحقيق د/عبد العزيز عبد الفتاح ص٥٨)٠

والقاف بين جهرها وعلوها والكاف خلصها بحسن بيان إن لم تحقق جهر ذاك وهمس ذاك فهما لأجل القرب يختلطان ولأجل هذا التقارب الشديد لم يجتمعا في كلمة واحدة عربية إلا في قوله تعالى : ﴿ ألم نخلقكم ﴾ ٠ ففي هذه القاف مذهبان : بعض القراء يدغمها في الكاف إدغاما تاما ، وبعضهم يدغمها إدغاما ناقصا ، أي مع بقاء صفة الاستعلاء في القاف ٠

إن القاف التي يتكلم القراء عن إدغامها في الكاف هنا هي التي وصفوها بالجهر ، وحددوا لمخرجها أول الفم لصيقا بمخرج الكاف ، لاهذه المهموسة التي ابتعد مخرجها عن الكاف و المنتشرة في فصحى اليوم !

وما دمنا نختم شواهد القدماء التي ترينا مخرج القاف عندهم وصفاته فيحسن بنا أن نختم هذه الشواهد بما قاله عالمان من علمائنا أحدهما إمام في القراءات هو ابن الطحان المتوفى سنة ٥٦٠هـ . يقول ابن الجزري فيه (غاية النهاية في طبقات القراء : ٢٩٥/١) : (٠٠٠أستاذ كبير وإمام محقق بارع ،

مجود ثقة .. ألف التواليف المفيدة من كتاب الوقف والابتداء ، وكتاب مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ ، لا يعرف قدره إلا من وقف عليه .. سمعت غير واحد يقول ليس بالمغرب أعلم بالقراءات من ابن الطحان) .فإن ابن الطحان هذا يرتب مخارج الحروف ترتيب سيبويه وابن جني فيما يتعلق بالقاف (غ خ ق ك ج .. وهو ترتيب الخليل ، الا أن الخليل يأتي بالخاء قبل الغين (خ غ ق ك ج) (مخارج الحروف وصفاتها ، ابن الطحان ، تحقيق الدكتور محمد يعقوب تركستاني (ص ٥٦) يقول : (وأما اللسان ففيه عشرة مخارج لثمانية عشر حرفا ، في أربعة مواطن منه : أقصاه ، و وسطه ، و حافته ، وطرفه. فمن أقصاه وما يليه من الحنك الأعلى ، تخرج القاف . ومن ذلك الأقصى منفرجا عن الحنك الأعلى ، منسفلا إلى الحنك الأسفل ، تخرج الكاف) (ص٨١) .

وفي ص ٨٧ يتحدث عن الأصوات المهموسة ويجمعها في العبارة المشهورة : (سكت فحثه شخص) ويضيف : (والجهر فيما عداها) أي أن القاف من المجهورات .

أما القول الاخر فقول أشهر طبيب عرفته الحضارة الإسلامية إنه ابن سينا في كتابه (أسباب حدوث الحروف) . وأهمية الاستشهاد بابن سينا تأتي من أنه طبيب يشرح أعضاء النطق ، ثم يصف الطريقة التي يتم بها تكوين الحروف والمخارج التي تخرج منها . وإذا أخذنا القاف مثلا من ذلك فإننا نجده يتفق مع علماء اللغة ، والقراءات القدامى في صفاته ومخرجه ، وهو ما يدعم صحة كلام هؤلاءالعلماء عن هذا الصوت ، ويزيل شك من يشكك في أقوالهم

وفي مقدرتهم على تحديد مخارج الحروف وصفاتها من العلماء المحدثين ٠ يقول ابن سينا فيه : (وأما الخاء فإنها تحدث من ضغط الهواء إلى الحد المشترك بين اللهاة والحنك (١) ضغطا قويا مع إطلاق ٠٠) ص ٧٣) فهو بذلك يحدد مخرج الخاء وهو الحد المشترك بين اللهاة والحنك) . ثم يقول عن القاف ص٧٤ : (والقاف تحدث حيث تحدث الخاء ، ولكن بحبس تام ، وأما الهواء ومقداره وموضعه فذلك بعينه) . وقد قطع ابن سينا بهذا الوصف الدقيق قول كل متحدث عن مخرج القاف ، ولم يسبقه في هذه الدقة إلا الخليل (وقد ردد العلماء القدامى مقولته من بعده) حين قال : (والقاف والكاف لهويتان ، لأن مبدأهما من اللهاة) العين –٥٨) ، فقول الخليل : لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة ، يفسره قول ابن سينا : (الحد المشترك بين اللهاة والحنك) ٠

فإذا علمنا أن اللهاة في العربية تعني (اللحمة المشرفة على الحلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم) (القاموس ج ٤ ، ص ٣٩٠) وهو ما نطلق عليه اليوم الطبق أو الحنك اللين ، لا تلك المضغة المتدلية من آخرها فحسب كما يتبادر إلى أذهان بعضهم ٠ إذا علمنا ذلك تبين لنا أن مخرج القاف القديمة هو الحيز بين الحنك اللين والصلب (آخر اللهاة من ناحية الجوف إلى الفم ، وأول الحنك الصلب) ٠ وهو غير مخرج القاف في فصحى اليوم الذي يتم حيث ينطبق آخر اللسان على آخر اللهاة (الطليطلة)، ولا خلاف بين علماء اللغة المحدثين في ذلك (انظر ص ٢) ، وهو مخرج بعيد عن المخرج الذي وصفه الأقدمون للقاف كما رأينا ، ويأتي قبل مخرجي الغين والخاء (من الجوف إلى الفم) ٠

وكما اختلف القافان في المخرج فقد اختلفا أيضا اختلافا بينا في صفتي الجهر والهمس . فعند الأقدمين مجهور ، ولا خلاف بينهم في ذلك ، وعند المحدثين مهموس ، ولا خلاف بينهم في ذلك أيضا كما تبين لنا من العرض السابق .

وهنا يأتي سؤال لا بد من الإجابة عنه : هل أخطأ الأقدمون في توصيفهم ، أم أنهم يصفون قافا غير التي نعرفها في فصحى اليوم ؟

يأتي على رأس من تعرض لذلك من علمائنا المعاصرين ، وهو أكثرهم دقة وحيدة وأخذا بمعايير العلم ، الدكتور / إبراهيم أنيس ، وقد تبعه جل الآخرين في ذلك . يقول أنيس (الاصوات اللغوية ، ص ٨٤) : (القاف كما ينطق بها الان في مصر بين مجيدي القراءات قد وصفتها بأنها أحد الأصوات المجهورة) .

ويضيف (ص ١٢٣) : (ونحن حين نحسن الظن بتعريف سيبويه ونحكم بأنه كان على علم حقيقي بطبيعة المجهور والمهموس ٠٠٠ ولست أرى مبررا للحكم عليه بغير هذا ،فقد ذكر الحروف المجهورة والمهموسة وعينها ، واتفق في هذا مع ما تبرهن عليه التجارب الحديثة فيما عدا حرفين اثنين) يعني القاف والطاء ٠ ثم يضيف (ص ١٥٧) : (والقاف والطاء اللتان رمى القدماء إلى قلقلتهما ليستا القاف والطاء اللتين نسمعهما الآن في قراءة المقرئين في هذا العصر ، وإنما هما القاف والطاء كما كان ينطق بهما مجهورين ٠٠) ويصل إلى القول : (فالقاف والطاء الأصليتان هما صوتان مجهوران ، حرص القدماء على

جهرهما ، ولكن رغم هذا الحرص قد تطورا إلى صوتين مهموسين في قراءاتنا الان) .

أما الدكتور تمام حسان (مناهج البحث في اللغة ، ص ٨٥) فيقول : (ولقد خلط نحاة العرب خلطا كبيرا في تحديد هذه المخارج وحسبك أن ترى ابن الجزري يفاصل بين الآراء المختلفة في تحديد عدد منها ٠٠)

ثم يصف الدكتور تمام القاف ومخرجه قائلا (ص٩٦) : " وهذا صوت لهوي شديد مهموس ، له بعض القيمة التفخيمية ، ولكنه لا يوصف بأنه مفخم ويتم نطقه برفع مؤخر الطبق حتى يلتصق بالجدار الخلفي للحلق ، ورفع مؤخر اللسان حتى يتصل باللهاة (١) ، وهي الزائدة التي في النهاية الخلفية للطبق ، وحتى يتصل كذلك بالجدار الخلفي للحلق في الوقت الذي تنفتح فيه الأوتار الصوتية في وضع تنفس لا في وضع جهر ٠

لقد مر بنا أن هذا الصوت من أصوات القلقلة ، وأن النحاة والقراء قد أخطأوا في اعتباره مجهورا لهذا السبب يتكلم الدكتور / أحمد مختار عمر (دراسة: الصوت اللغوي ، ص ٢٧١) عن توزيع الأصوات مخرجيا) فيبدأ في تعديدها مع توصيفها من الشفتين إلى داخل الجوف حتى يصل إلى المخرج الثامن : (الطبق اللين مع مؤخر اللسان) ، وفيه ستة أصوات من بينها الخاء والغين ٠ ثم يلي ذلك المخرج التاسع (اللهاة مع مؤخر اللسان) ويريد باللهاة (الزائدة التي في مؤخر الطبق) كما سماها د/ تمام ، أو ما أطلق عليه (الطليطلة ، كما مر ذكره ، فيقول : " ويسمى الصوت حينئذ لهويا ٠ويتم في هذه المنطقة

إنتاج صوت واحد هو القاف) (ص ٢٧٢) وفي ص٢٧٧ يوزع الأصوات المهموسة .

ثم يتعرض لوصف القدماء للقاف (ص٢٩٣) فيقول : (يتلخص وصف القدماء في وصف هذا الصوت فيما يأتي :

١- من ناحية المخرج : ذكر سيبويه وابن جني أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى . كما ذكرا أن مخرج الكاف يلي مخرج القاف .

ولكن من المتأخرين من ذكر أن القاف والكاف في حيز واحد (وإن اعتبر الكاف أدنى إلى مقدم الفم) .

٢- من ناحية الجهر والهمس : وصفها الجميع بأنها مجهورة (يعتمد على أنيس في ذلك) .

٣) من ناحية التفخيم : لم يعتبرها القدماء من أصوات التفخيم لأنهم قصروا تلك الأصوات على الصاد والضاد والطاء والظاء) انتهى (ص ٩٤) .

جانب د/ مختار التوفيق في البند الثالث ، فالقدماء قد جعلوا القاف ضمن أصوات التفخيم مع الغين والخاء ولم يجعلوها ضمن الأصوات المطبقة (أو التي وصفت بالإطباق) الأربعة . وفرقوا بين صفتي التفخيم والإطباق (انظر ص ٤) .

بعد أن أبان الدكتور / مختار عمر الاختلاف الظاهر بين القافين (فصيح اليوم ، وما وصفه القدماء) سأل السؤال الذي سألناه (ص ٢٩٥) : " فهل

أخطأ القدماء؟ " ، ثم يجيب قائلا : (رغم وجود هذا الاحتمال ٠٠ فإننا نحسن الظن بهم ، ونقول : لعلهم وصفوا قافا كانت مجهورة في القديم ، ثم تطورت بمرور الوقت حتى صارت مهموسة ، أو لعل النطقين كانا موجودين جنبا إلى جنب فاختاروا من بينهما ما اعتبروه فصيحا ، وهو الصوت المجهور) ٠

الاحتمال الأخير هذا نستبعده لأن أحدا من القدماء الذين وصفوا الأصوات ومخارجها لم يقل به ، ولأن الدكتور مختار نفسه لم يجد ما يدعم موقفه من هذا الاحتمال ٠

ويبقى للدكتور / مختار احتمالان : (إحسان الظن بهم) في أنهم يصفون قافا كانت مجهورة ، أو أنهم أخطأوا في الوصف ٠

نحن الان أمام موقفين لعلمائنا إزاء القاف ، قدامى يصفون قافا غير التي يعرفها المحدثون ٠٠ ثم إن المحدثين يخطئون الأوائل في وصفهم للقاف ، أو أنهم يحسنون الظن بهم فيذهبون إلى أنهم – أي القدامى – يصفون قافا غير التي تستخدم في فصحى اليوم !

وهذان الموقفان يحتمان علينا أن نجيب عن السؤال الذي طرح : هل أخطأ القدماء في توصيفهم ، أم أنهم كانوا يستخدمون قافا غير التي تعرف في فصحى اليوم ؟

من هذا العرض الذي تم في هذا البحث يتضح لنا أن علماء اللغة والنحو والقراءات القدامى ابتداء من عهد الخليل ، وسيبويه (القرن الثاني الهجري) ، مرورا بابن سينا (أواخر القرن الرابع ، وبداية القرن الخامس) ، ثم ابن الباذش وابن الطحان (في القرن السادس) ومكي بن أبي طالب

القيسي، وابن الجزري (في القرن التاسع) ... الخ . قد اتفقوا في توصيف القاف ، وتحديد مخرجه بما يعرفون من نطقه عندهم ، فلا يعقل أن يجتمع علماء الأمه باختلاف عصورهم على ضلالة ، والمصطفى (صلى الله عليه وسلم) يقول : " لا تجتمع أمتي على ضلالة . ولهذا يستبعد أن يكون هؤلاء العلماء وغيرهم قد أخطأوا في توصيف القاف . يدعم ذلك د/ أنيس بما قاله عن معرفة سيبويه للمجهور والمهموس (انظر ص١٤) . وبذلك قال علم الأصوات كانتينيو (دروس في علم أصوات العربية ، ص ٤٩/٥٠) فقد استدل من عبارة سيبويه سالفة الذكر : (لولا الإطباق لصارت الطاء دالا ..) على أن المجهور عند سيبويه لم يختلف عن تعريف المجهور عندنا اليوم ، فالطاء في العربية القديمة كانت صوتا مجهورا ، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون الفرق الوحيد بينها وبين الدال المجهورة هو الإطباق ، بينما نجد الطاء اليوم مهموسة ، ولذلك أصبح الإطباق يفرق بينها وبين التاء المهموسة لا الدال المجهورة .

يصل هذا البحث من خلال هذا العرض إلى أن القدماء لم يخطئوا في توصيف القاف كما ذهب إليه بعض المحدثين .

كما يصل إلى أن القاف التي كانت سائدة في اللغة العربية ، التي حفظت لنا كتب التراث صفاتها ، ومكان خروجها من الفم هي قاف مجهورة ، وأنها تخرج من حيث ذكرت هذه الكتب ، وأنها تطابق القاف المسماة اليوم عامية .

٣- الشدة : القاف في فصحى اليوم صوت شديد ، وعند الأقدمين كذلك، فهل تتساوى الشدة في النطقين ؟

صنف القدماء القاف ضمن الأصوات الشديدة المجهورة ، وصنفه المحدثون ضمن الأصوات الشديدة المهموسة ، ولهذا تختلف درجة الشدة في الصوتين ، وذلك لأن عملية الإغلاق والفتح في تذبذب الحبلين الصوتيين تقلل من درجة الشدة في الأصوات المجهورة عنها في المهموسة .

ولهذا السبب اهتم علماؤنا القدامى - رحمهم الله - بقلقلة ما يعرف بحروف القلقلة - والقاف واحد منها - لأنها إذا سكنت ضعفت فاشتبهت بغيرها ، ولهذا فهي تحتاج إلى نبر لإظهارها حال سكونها ، وتكون القلقلة في الوقف أقوى وأظهر منه في درج الكلام . ولهذا فهم يقلقلونها بهدف إبقاء صفة الحرف المقلقل ، وأهمها الجهروالشدة ، فحروف القلقلة كلها مجهورة وشديدة ، يقول ابن الجزري في حديثه عن الباء (النشر ، ج١ ، ص٢١٦) ، " وإذا سكنت كان التحفظ بما فيها من الشدة والجهر أشد نحوه : ربوه ، والخبْء، وقبْل ، والصبْر ، فانصبْ ، فارغبْ ، وكذلك الحكم في سائر حروف القلقلة لاجتماع الشدة والجهر فيها " .

يقول مكي : (الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، ص ١٣٧) : " واعلم أن القوة في الحرف تكون بالجهر ، وبالشدة ، وبالإطباق والتفخيم ، وبالتكرير ، وبالاستعلاء ، وبالصفير وبالاستطالة ، وبالغنة ، وبالتفشي . فالحروف المجهورة ما عدا الحروف المهموسة المذكورة قبل هذا (يعني : سكت فحثه شخص) ، والحروف الشديدة هي ثمانية ، وهي هجاء

قولك (أجدك قطبت) فإذا كان القاف كما رأينا – صوتا مجهورا وشديدا ، فإنه يقلقل – كما يقول ابن الجزري – ليحتفظ بصفة الجهر فيه ، خاصة حين يكون ساكنا ، وإنا لنظن أن القاف في فصحى اليوم وقد انعدمت فيه صفة الجهر ، وأصبح مهموسا ، فلا يحتاج إلى هذه القلقلة لتقويته حتى تبين هذه الصفة ، بل إن انعدام الجهر فيه جعله صوتا أقوى شدة من القاف المجهور • وبذلك أمكن القول إن الشدة تختلف في قاف العربية الفصحى اليوم عنها في العربية الفصحى عند القدماء •

٤– الإطباق : يختلف القافان – الذي وصفه القدماء ، وفصيح اليوم – في هذه الصفة ، فقد رأينا أنها تلحق قاف اليوم بينما تنعدم في القاف التي وصفها علماء اللغة العربية ، نحويون وقراء !!

خلاصة ما توصلنا إليه من هذه المقابلة بين القاف المسمى فصيح اليوم ، والقاف التي استخدمها العرب قديما ، و وصفها العلماء ، أنهما يختلفان في الجهر والهمس ، والمخرج والشدة والرخاوة ، وصفة الإطباق •

وبكلمات أخرى نستطيع القول بناء على ما تبين لنا في ضوء هذه المقابلة بين الصوتين ، أن القاف التي نعلمها لأبنائنا في المدارس اليوم ليست هي الأفصح ، ، ولا هي الاقرب إلى القاف في العربية الفصحى القديمة •

ويبقى سؤال مهم : هل اندثرت القاف التي وصفها لنا النحاة والقراء ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نرجع مرة أخرى إلى القاف التي نطلق عليها (عامية) ونقابلها بالقاف القديمة التي وصفتها لنا كتب التراث •

إذا رجعنا إلى هذه القاف ، العامية وأردنا توصيفها مقابلة بالقاف الموصوفة قديما نجد الآتي :

١- الجهر والهمس : القاف العامية مجهورة ، والقاف القديمة مجهورة .

٢- المخرج : تخرج هذه القاف العامية من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى ، قبيل مخرج الكاف ، في أول اللهاة (أي في أول الحنك اللين ، أو الطبق) ، وينطبق عليها وصف الخليل ، وسيبويه ، وغيرهم من النحاة والقراء الذي مر تماما . إذا فالقاف التي وصفها القدماء تخرج من ذات المخرج الذي تخرج منها القاف المسماة عامية ، في حين نجد الأخرى - الفصيحة - في آخر اللهاة .(١)

٣- الشدة والرخاوة : كلا الصوتين شديد ، ولما كانا مجهورين فهما يستويان في الشدة ، بينما في المسماة فصيحة وجدنا درجة الشدة تختلف في الصوتين لاختلافهما في الجهر والهمس .

٤- الإطباق : القاف الموصوفة قديما ليست مطبقة ، والقاف العامية ليست مطبقة كذلك بينما نجد فصيحة اليوم مطبقة ، بحيث إنه إذا انعدم الإطباق والهمس تصير كافا .

من هذه المقابلة بين الصوتين تصل إلى إجابة السؤال المطروح ، وهي أن القاف القديمة التي وصفتها كتب التراث تماثل في مخرجها القاف المسماة عامية ، الشائعة بين ألسنة العرب اليوم ، وهي التي لا تستخدم في فصول الدراسة ، بينما يبذل الطلاب الجهد أقصاه ليتعلموا نطق الأخرى الغريبة عليهم ، التي تعتمدها مدارسنا باعتبارها الفصحى .

إن التطابق بين صفات القاف القديمة ومخرجها ، والقاف التي تستخدمها اللهجات العربية اليوم على اختلافها ، خاصة البعيدة عن المدن والحضر ، والتي أسميناها عامية ليجيب إجابة قاطعة عن السؤال الذي طرحناه حول اندثار القاف القديمة مؤكدا أنها هي هذه الشائعة بين لهجات العرب اليوم ، وإن لم يكن كذلك ، فمن أين جاءت هذه القاف وانتشرت وعممت كل اللهجات العربية المعاصرة ؟! إنها واحد من ثمانية وعشرين حرفا عرفتها العربية ، ونشرها العرب أينما حلوا ، ولم لا ؟ فالعرب اليوم جميعهم على اختلاف دولهم ، يعرفون هذه القاف المجهورة التي وصفتها كتب القدماء ، ويخرجونها من المخرج ذاته الذي حددته هذه الكتب ، ويتكلمون بها في بواديهم وقراهم وأريافهم ، أفلا يدل كل ذلك على أصلها العربي الفصيح ؟ إن عدم الاعتراف من بعضهم بهذه الأصالة ، الذي لا يدعمه دليل ولا منطق ، مدعاة للطعن في أي صوت من الأصوات التي تعرفها لهجات العرب اليوم ٠

ينحى الدكتور أنيس هذا المنحى الذي نحاه هذا البحث في أن القاف الموصوفة قديما هي الشائعة في لهجات اليوم حين يبحث عن أصل هذه القاف الموصوفة في كتب التراث بين اللهجات العربية المعاصرة ، فيقول (الأصوات ، ص ٨٤) : " على أننا نستنتج من وصف القدماء لهذا الصوت أنه ربما كان يشبه تلك القاف المجهورة التي نسمعها الآن بين القبائل العربية في السودان ، وبعض القبائل في جنوب العراق ، فهم ينطقون بها نطقا يخالف نطقها في معظم اللهجات العربية ، إذ نسمعها نوعا من الغين " وقد تتبع د / أنيس في هذا الاستنتاج كثير من الذين بحثوا في أصوات العربية ، غير أن الدكتور أنيس

أخطأ، وأخطأ القائلون بقوله إن القاف القديمة ربما كانت القاف التي تنطقها القبائل العربية في السودان غينا •

ومصدر الخطأ في ذلك أن هذه القبائل العربية في السودان تنطق القاف القديمة كما تنطقها كل القبائل البدوية المعاصرة ، وكما وصفتها كتب التراث، ولا يخطئ فرد من أفرادها كبيرا أو صغيرا ، امرأة أو رجلا في نطق هذه المهموسة التي نستخدمها اليوم في الفصحى فيقلبونها غينا لهذا نستبعد أن يكون النطق المشار إليه هو نطق القاف الموصوفة في كتب القدماء ، وكأني بالدكتور أنيس نفسه لا يركن لهذا الاستنتاج الذي استنتجه ، ولهذا فهو يفترض افتراضا آخر حين يقول (نفسه ، ص ٨٥) : " ومن الممكن أن نفترض للقاف القديمة فرضا آخر ، ربما كان أكثر احتمالا ، وهو أنها كانت تشبه الجيم القاهرية ، ولكنها أعمق منها في أقصى الفم ، وأكثر استعلاء "

ثم يصل إلى ما توصل إليه هذا البحث قائلا (نفسه ص٨٥) : " ويستأنس لهذا الرأي بنطق معظم البدو الآن القاف على هذا النحو " وهو ما أشرنا إليه بالنطق السائد بين كل اللهجات العربية المعاصرة في كل الوطن العربي خاصة خارج المدن •

ويدعم د/ أنيس ما توصل إليه بما ذكره ابن خلدون في مقدمته من وصف للقاف يشبه النطق الذي لا نزال نسمعه بين البدو قائلا (نفسه ص ٨٥، ٨٦) : " ويظهر أن معظم القبائل البدوية التي عاشت في المغرب أيام ابن خلدون كانت من القبائل الحجازية التي هاجرت في القرن الخامس الهجري إلى

تلك البلاد ، وجاءت معها بهذا النطق الخاص للقاف ! ولذلك نرجح أن نطق القاف كالجيم القاهرية قديم " .

يذهب د/ أحمد مختار عمر مذهب البحث مرجحا أن القاف الموصوفة في كتب التراث هي المنتشرة بين اللهجات العربية اليوم ، يقول - كما قال د/أنيس - (دراسة الصوت اللغوي ص ٩٥) ، بعد أن يسأل : ولكن كيف كانت تنطق هذه القاف المجهورة ؟) ، يقول : (لذلك احتمالان نستقيهما من اللهجات العربية الحديثة ، وهما :

١- نطقها غينا ، أو قريبة من صوت الغين .

٢-نطقها جيما قاهرية (مجهور الكاف) أو قريبة من صوت هذا الجيم .

وكلا النطقين ما يزال منتشرا في الأقاليم العربية) انتهى .

لقد سبق تبيان الخطأ في الاحتمال الأول ، ولم يبق إلا الاحتمال الثاني عنده أي أن قاف كتب التراث هي التي تنطق اليوم جيما قاهرية ، أو قريبة منها كما هو شائع في ألسنة العرب اليوم .

أما الدكتور / محيي الدين رمضان (في صوتيات العربية ، ص ١٠٥) فبعد أن يصف الطريقة التي يتم بها إخراج القاف يقول : (وهو قريب من صوت G في اللغة الإنجليزية ، في مثل : got ، و strong ، ورويت لهجة في نطق المتقدمين يمثل صوتها فيها نطق صوت (g) في الإنجليزية المشار إليها في حدوث صوتها ، ولم تزل حتى اليوم في بلاد كثيرة كشمال الجزيرة العربية ، وأكثر المناطق البدوية مثل : (بقر ، قل له ، قبل ، وقت ، وقدر ، ورقة ، وهذه لهجة أهل الأردن ، وصعيد مصر) .

آراء تؤيد القول بأن القاف العامية المجهورة في فصحى اليوم تطابق تلك التي وصفها القدماء •

لقد سألنا سؤالين في أول هذا البحث هما : من أين جاءت القاف المسماة عامية) والتي تعم القرى والحضر في العالم العربي اليوم ؟ ومن أين جاءت الأخرى (المسماة فصيحة ، والتي تقتصر على فصول الدراسة والاستخدام الرسمي في نشرات الأنباء وغيرها ؟! ولعل فيما يأتي اضافة إلى ما معنى إجابة عن السؤالين معا •

يقول البروفيسور كانتينو (دروس في علم أصوات العربية ، ص١٠٨): (إن اللهجات التي صار الحرف القديم فيها حرفا مهموسا هي لهجات حضرية ، وبخلاف ذلك فإن اللهجات التي صار القاف القديم فيها حرفا مجهورا هي لهجات بدوية ، ولم يشذ عن هذا المبدأ شئ شذوذا حقيقيا) •

إن مجرد قصر هذه القاف المهموسة في المدن دون غيرها من البوادي والأرياف ، قديما وحديثا ، يشير إلى الانحراف عن القاف الفصيحة المجهورة (التي نطلق عليها اليوم عامية) قد يكون ناجما عن تأثيرات خارجية ، حيث إن الحاضرة دائما هي المكان والهدف الذي يقصده الأجانب ، أما الارياف والبوادي فهي في منأى عن هؤلاء الاجانب ، ولهذا السبب احتفظت القاف فيها – قديما وحديثا – بنطقها العربي الفصيح •وتطورت القاف المهموسة – المسماة فصيحة اليوم – في المدن من الجهر إلى الهمس ، فربما كان الهمس أسهل عند هؤلاء الأجانب من الجهر في نطقها ، ولهذا انتقلوا بها تحت مبدأ (الجهد الأقل) في اللغة ، من مخرجها في أول الحنك اللين (الطبق) من اللهاة ، إلى

مؤخر اللهاة ، وهمسوها ، ثم ساد هذا النطق الجديد المدن ، واقتصر في زماننا هذا على المدارس والاستخدام الحكومي الرسمي ، أي أنه لم يتعد المدن بينما ظلت القرى والبوادي تحتفظ بالقاف التي نراها أقرب ما تكون الفصيحة في جميع اللهجات العربية إلا ما شذ .

ومما يدعم هذا الرأي قول ابن الجزري (النشر في القراءات العشر ، ج١ ، ص ٢١٥) في معرض حديثه عن الخلل الوارد على ألسنة القراء ، يقول: (إن أصل الخلل الوارد على ألسنة القراء في هذه البلاد وما التحق به هو إطلاق التفخيمات والتغليظات على طريق ألفتها الطبعات ، تلقيت من العجم ، واعتادتها النبط ، واكتسبها بعض العرب) ولعل هذا ما حدث للقاف ، ولاحظوا دقة التعبير ، وعلمية العبارة في نص ابن الجزري رحمه الله (تلقيت من العجم ، واعتادتها النبط ، واكتسبها بعض العرب) .

يصف ابن سينا (أسباب حدوث الحروف ، ص ٧٤، ٧٥) كان يستعملها العرب في زمانه (٢٧٠ – ٤٢٨ هـ) بدل القاف ، فيقول : (وأما الكاف التي يستعملها العرب في عصرنا هذا بدل القاف فهي تحدث حيث تحدث الكاف إلا أنها أدخل قليلا والحبس أضعف) ونعرف مخرج الكاف الذي يستعمل بدل القاف بمعرفتنا لمخرج الكاف الفصيحة كما يصفه هو قائلا : (وأما الكاف فانها تحدث حيث تحدث الغين ، وبمثل سببه ، إلا أن حبسه حبس تام ، ونسبة الكاف إلى الغين ، هي نسبة القاف إلى الخاء) ، فان كانت الكاف تحدث حيث تحدث الغين –كما ذكر – وكانت الكاف التي يستعملونها بدل القاف تخرج من المخرج ذاته ، أي مخرج الغين ، الا أنها أدخل قليلا ، والحبس

أضعف) دل ذلك أن مخرج الكاف التي ينطقها العرب في عصره بدل القاف هو مخرج القاف المهموسة في فصحى اليوم ، فهو مخرج أدخل من مخرج الغين .

لهذا فإننا نرجح أن تكون هذه الكاف التي كان يستخدمها العرب في عصر ابن سينا بدل القاف ، هي القاف المهموسة التي نستخدمها في فصحى اليوم ، والتي يمكن أن ينطبق عليها مضمون عبارة ابن جني (تلقيت من العجم، واعتادتها النبط ، واكتسبها بعض العرب) فإن صدق هذا الترجيح ، وكانت هي المقصودة بكلام ابن سينا فإنها تكون ليست عربية ، لأن ابن سينا يقول (ص٨٦) تحت عنوان : (في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب) : " وها هنا حروف غير هذه الحروف ، تحدث بين حرفين فيما يجانس كل واحد منهما بشركة في سببه ، فمن ذلك الكاف الخفيفة التي ذكرناها " أي التي يستعملها العرب في عصره بدل القاف .

من كل ما تقدم نصل إلى أن القاف المستخدمة في فصحى اليوم ، والتي نعلمها لأبنائنا في المدارس ليست على أقل تقدير ، القاف التي وصفتها لنا كتب التراث تماما .

ومن جهة أخرى نجد أن القاف الأخرى – التي توصف بأنها (دارجة) ولا يجوز استخدامها في المدارس ، ويستهجن استخدامها بين المتعلمين ، نجد أن هذه القاف مطابقة تماما للقاف العربية التي وصفها الأقدمون !

فاذا كان الأمر كذلك ، وكنانتفق مع الدكتور علي عبد الواحد وافي (فقه اللغة ص ١٤٧٦) في قوله : " ولهجات القرى في جميع هذه المناطق – اليوم– أفصح من لهجات المدن ، وأقل منها في الكلمات الدخيلة ، وأدنى منها

إلى العربية الفصحى ، ويرجع السبب في ذلك إلى ميل سكان القرى إلى المحافظة، وقلة احتكاكهم بالأجانب) .

نعم إذا كنا نتفق مع د/ وافي فيما ذكر ، ونقر أن الأصوات العربية المستخدمة في البوادي هي الأدنى لأصوات العربية الفصحى ، لأنها أكثر محافظة وأبعد موطنا عن أقدام الأجانب ، إذا كان ذلك كذلك فلماذا – والسؤال موجه إلى مجامعنا اللغوية والمختصين – لانرجع مرة اخرى إلى القاف المجهورة الموصوفة في كتب التراث والمستخدمة بين الشعوب العربية قاطبة ؟ أو على أقل تقدير لماذا لا نعتبرها فصيحة كالأخرى ، ونجيز استخدامها في أروقة الجامعات والمدارس والاذاعات مرئيها ومسموعها ؟ إنها موجودة في أي بلد وطئته أقدام العرب ، أفلا يكفي ذلك وحده دليلا على فصاحتها ؟ إنها موجودة في صعيد مصر ، وفي موريتانيا على المحيط الاطلسي ، وفي عمان والبحرين على الخليج العربي ، وفي قلب أفريقيا في السودان ، وبين قبائل جزيرة العرب جمعاء ، وفي شمال الجزيرة إلى العراق ، فإن لم تكن عربية الأصل فمن أين جاءت ؟!

وبعد فالرجاء معقود على المجامع العربية ، والمختصين ليدلوا بما يرون في هذا الأمر المهم الذي يتعلق بلغة الأمة كلها ، فإن اجتمعت الاراء على أن القاف التي وردت في كتب التراث هي القاف المجهورة السائدة اليوم في معظم اللهجات العربية ، أو هي الاقرب إليها من تلك القاف المهموسة المستخدمة اليوم في العربية الفصحى ، إن اجتمعت الاراء على ذلك فإنه يترتب عليه أن يقر أحد المجامع العربية أن القاف المسماة دارجة اليوم هي قاف فصيحة ، أو هي الأفصح ليتسنى استخدامها في مدرجات التعليم ، وفي مؤسسات الإعلام

الناطقة ، وبذلك تتحقق أهداف عظيمة من أهمها عدم التناقض بين القاف الدارجة ، والقاف التي عرفها علماء اللغة العربية ، وذلك مما يقرب الشقة بين ما يعرف باللغة الفصحى اليوم ، واللغة العامية ، ومن المشقة ان ينطق العربي نطقين مختلفين لصوت واحد ، يسمي أحدهما فصيحا ، ويسمي الآخر دارجا ، فيحرم الأخير في التعليم والإعلام ، ويحرم الأول في المجتمع ، بحيث إن من يستخدم الأول في المسرح ، أو في الحياة ينظر إليه الناس نظرة استهجان واحتقار ! وإن من يستخدم الثاني في المدارس ورسميا ، أيضا ينظر إليه نظرة استهجان واحتقار .

كما يتحقق من جراء ذلك تسهيل تعلم العربية لأبنائنا في المدارس الذين لم يعتادوا على هذا القاف المطبق ، والمهموس ، لأن آباءهم وأمهاتهم وأهلهم لا يعرفونه !

من الطبعي أن يكون نطق هذه القاف المجهورة نابيا في الأذن ، أول الامر ، ولكن الآذان ستعتاده في وقت وجيز لشيوعه في اللهجات العربية . لقد شاءت الأقدار أن أسكن في مكة المكرمة قبل عشر سنوات عند أول حضوري لها بجوار مسجد يقيم المؤذن – وهو قرشي – الصلاة فيه بجهر هذا الصوت ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة) فلم أستسغ ذلك أول الامر ، ولكن بعد فترة وجيزة اعتدت على هذا النطق فلم يعد يلفت انتباهي ، بل وجدت القاف ينطق مجهورا (كالقاف الدارجة) في قراءة كثير من أئمة المساجد (من البدو) الذين لم يتلقوا تعليما نظاميا في كل من مكة المكرمة ، وجدة .

مراجع البحث :

١- إبراهيم أنيس (دكتور) -الأصوات اللغوية ،ط٥- مكتبة الأنجلو المصرية -٩٧٥ .

٢- ابن الباذش -الإقناع في القراءات السبع (تحقيق د/ عبد الحميد قطامش) - ط١-ج١-دمشق : دار الفكر -٣

٣- ابن الجزري

١ - النشر في القراءات العشر (تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع)- بيروت .

٢- تحبير التيسير (تحقيق محمد الصادق وعبد الفتاح القاضي) - ط١ حلب دار الوعي -١٩٧٢ م ٠

٤- ابن الطحان - مخارج الحروف وصفاتها (تحقيق د/ محمد يعقوب تركستاني) - ط١-١٩٨٤م ٠

٥- ابن جني -سر صناعة الأعراب ٠ تحقيق مصطفى السقا وآخرين) - مصر ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده -١٩٤٥م ٠

٦- أسباب حدوث الحروف . تحقيق محمد حسان ويحيى مير) ط١ – دمشق : دار الفكر –١٩٨٣ م .

٧- أحمد مختار عمر (دكتور) – دراسة الصوت اللغوي – القاهرة : عالم الكتب –١٩٧٦م .

٨- الخاقاني ، والسخاوي – قصيدتان في تجويد القرآن (تحقيق أبي عاصم القارئ) – ط١– دار مصر للطباعة – ١٤٠٢ هـ .

٩- الخليل بن أحمد – العين – (تحقيق د. مهدي المخزومي – د. إبراهيم السامرائي) – ج١ .

١٠- الزمخشري – المفصل في علم العربية ط٢ – بيروت : دار الجيل – بدون تاريخ

١١- المبرد – المقتضب (تحقيق محمد عبد الخالق) – مصر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

١٢- تمام حسان (دكتور) – مناهج البحث في اللغة –ط٢– الدار البيضاء: دار الثقافة – ١٩٧٤ م .

١٣- جان كانتينو - دروس في علم أصوات العربية (ترجمة صالح القرماوي) - تونس : مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية ، والاجتماعية - ١٩٩٦م .

١٤- حسن ظاظا (دكتور) - كلام العرب (من قضايا اللغة العربية) - مكتبة الدراسات اللغوية - ١٩٧١ م .

١٥- سيبويه - الكتاب (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٦- عبد الصبور شاهين (دكتور) -القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث - القاهرة : مكتبة الخانجي - بد . . .

١٧- علي عبد الواحد وافي (دكتور) - فقه اللغة ، ط ٥ - مكتبة نهضة مصر : طبع لجنة البيان العربي المغيرة - ١٩٦٢م .

١٨- كمال محمد بشر (دكتور) - علم اللغة العام (الأصوات) - مصر : دار المعارف١٩٧٣ م.

١٩- محيي الدين رمضان (دكتور) - في صوتيات العربية - عمان : مكتبة الرسالة الحديثة - ١٤٠٤ هـ .

٢٠- مكي بن أبي طالب القيسي - الرعاية (تحقيق د. أحمد حسن فرحات - ط٢- الأردن : دار عمار - ١٩٨٤م .

٢١- مكي بن أبي طالب القيسي - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها ، وحججها .تحقيق د. محي الدين رمضان) - ج١ - دمشق: مجمع اللغة العربية -١٩٧٤م .